وليد رباح

زهرة « الحنون »

قاسم الخضره .. يا ابن التي تنام في حضن الموسج ولا يجرحها الشوك .. دعني اصب على رأسك بعض الكلمات .. فليحرق عرقك ان رضيت لجلد الارض ان يتمزق .. وليغمس عظمك بالنبيذ على موائد المرفهين ان لم تأكل ماسورة (العشماية) لحم يديك ..

يهمي الحزن كئيبا على خديه .. وحيث تجتمع الهوام حول السراج تتنقل اصابعه فوق ثقوب الناي كخنجر يجرح الهواء ..

يـا قاعدن ع الرجـم تحتك نهـر يجري
وانـت سبـب علتـي والنـاس مـا تـدري

ياخذه الليل والناي اليها .. يتهدج العزف وتبقى ذبالة السراج تداعبها الريح وترسم اشكالا على سعف النخيل المرصوصة في اعلى السقف وقد اخذت لون القطران .

« احسدك ايها الليـل .. لانك تلمس جسمها كلمـا افترشت حصيرها تحت الدالية » .

. . .

وقاسم قد تعدد فيه القول .. كلما حمل المذياع اسمه ارتسمت على وجوه القوم عشرات الاسئلة .. قيل بانه ابن غير شرعي لرجـل واقع خضره على قارعة الطريق لما عادت من الحقل عند الغسق .. وقيل بل هو ابن لاحد ذوات القوم قد تبرأ منه لفقر الم بأمه مذ خلقت ... وقيل .. وقيل .

اما خضره .. تلك التي تعرف السر فقد همست في اذن البعض يوما ان قاسما ولد شرعي كشرعية الماء والعرق .. احبت يوما حسان المغربي فتزوجها سرا لثلاث ليال ثم غاب .. وعلمت بعد سنين ان يهود مستعمرة (هيلمان) قتلوه وعباوا لحمه في كيس صدروه الى اعماق البحر .. ومنذ ذلك اليوم وهي تذرف دمعا اذا ما لامس نار الشتاء استعرت ..

في القرية كان يسير حافي القدمين تهوي سخونة الرمل الى راسه . لا يستر جسمه غير اسمال اذا ما عريته يوما منها فانك تجد لطمات الشمس قد لونت جسمه بالبياض والسمرة حسب تعرضه لاشعتها .

كان يحلم .. لكن حلمه ينصب في كل ليلة على قطعة حلوى من نوع (الكعكبان) يلحنها باسنانه وكانه لامس القمر ..

. . .

الليل .. آه من الليل .. يخب في الارض السبخة فتنغرس الاقدام فيها بهلامية ودعة .. قبل ان يغوص في بطن الظلمة زفر في جسد نايه طويلا حتى خال انها انتفخت وانت تحت وطأة انفاسه. حدجته الريح طويلا فاطرق خجلا .. ماست على شفتيه ابتسامة وليدة .. عبر شقوق الطين كان يرى الليل يحلي جيده بعقود قاتمة .. واوراق الشجر تغفو فيخفت الحفيف ، وفي يمناه عروس تميس في غلائلها كينبوع من الحرير والخزف .. اما جسمه فقد حزم بالرصاص بحيث غدا قطعة من المعدن الاصفر اللماع .

« عندما طلبت يدها قال لي : صعلوك وجريء .. قد تلامس النجم يوما وتقضم منه قطعة تحشو بها جوعك ، لكنك لن ترطب حلقك يوما بنقطة من رضاب حسنه ..

آه ايها القدر .. تلسعني كثعبان ثم تاتي لتعتذر الي في وقت اصبحت الاشياء ملك يميني .. الليل .. والبندقية .. حتى المواشي ، فليشبع كل اهل البلد » .

على مبعدة من مستعمرة (هيلمان) سمع نباح الكلاب فايقن انهم يغطون في النوم ويتركونها لتوقظهم اذا اقترب (الغريب) .. اليوم يومك يا قاسم .. عشرون راسا من البقر يمكن ان تشبع الجياع في القرية شهرا او دون ذلك ..

تاكد انه يحشو طلقة في (بيت النار) اجتاز بعض الاسلاك وانسرب نحو الحظيرة .. شرع الابواب .. لا صوت هناك .. عاد . وعند الاسلاك اطلق في الريح رصاصة تبعتها عشرات الطلقات .. وفي الحظيرة ترك رسالة من قاسم الخضره ليسمع اسمه في المذياع عند الصبح وقيمة المكافاة المرصودة ثمنا له .

عندما لامست انفه رائحة (الطوابين) غذ خطاه .. وعند المنحنى كانت حسنة تقف كنخلة جذرها يمتص من دمه .. ايه يا زهرة الحنون .. انتقي لابيك عجلا سمينا تغذين به جسمه الجائع.. «اتحبني يا قاسم » « احبك كما يحب الغريق لعق الخشب الطافي على سطح الماء .. واحبك مثلما يحب اخي الصغير ذبالة السراج التي يقرأ على نورها تاريخ وطني » .

« اتذكرين .. يوم كانت اسمالي معذبتي كنت تغرسين غصن

البرتقال في لحمي فيجرحني .. تضحكين ، تخرجين منديلك تلتقطين نقط الدماء وتمزجينها بعرقي .. تجمعين صغار القرية يصفقون خلفي وينبحون .. اخيرا تمتدرين لي فاقبل عازفا عن كل شيء الا قطعة (الكمكبان) التي تنفحيني اياها بعد طول عناء .. كنت تملكين قروشا بيضاء جميلة .. اما انا فلم اكن املك غير اسمالي وعذابي ... » « اتحبينني يا حسنة » .. « احبك مثلما يحب الليل اتداء البكارى يغوص في قنواتها منسربا يمتص الرحيق دون ان يدري احد » .. فلتتجه صوب الشروق يا قاسم ، هنا يمتص الزمن عمرينا ، يسحب منا نضارة الوجه والجسم ولا ندري » « والجوع يا حسنه .. الجوع يا حسنة كافر .. نصف اهل القرية جائع .. » « كنت رائعا في ليلتك .. انتظرتك حتى ظهر الغبش متيقنة انك ستعود » « البيارة يا حسنة .. تسقين البرتقال وانت تعلمين ان اباك اغتصبها من جابر المصري ، ذاك الذي ينبش القمامة في كل يوم كي يطعم اطفاله » .

افترقا .. كلما توغل في الازقة تفتحت الابواب .. في القرية اليوم عرس حقيقي .. وخضره تجلس عند باب الدار تكوم جسدها المهور بالتراب والغبار تنتظر الفارس .. يخوض القطيع في الرمل فتفتح له باب البيت وتصفق بحرارة .. تعود للجلوس كمن تعود على شيء طالما رآه .. تحلم .. في المساء تاتي الجموع كل يحمل كيسه على ظهره .. وقاسم يغوص في الدم حتى المرفقين ، وسكينه في يده يقطع اللحم ويعطي هذا وذاك ونبرات صوته تخترق الفضاء الواسع .

. . . . .

كل النيران التي تاججت في الليل سكبوا عليها الماء .. لعقوا غبار الرماد كي لا ينبيء ان قاسما قد زار بطون اهل القرية .. جاء صوته لزجا كبصاق العناكب .. احفري لي في قلبك نفقا اعبر منه الى مستعمرة (هيلمان) « يا قاسم ، لا تخلط الجد بالهزل .. فتش لك عن مكان تاوي اليه » ، .. لكن قلبك يا حسنة خير ما يؤويني .. سانسرب الى بيتي عبر الازقة .. وهناك ساجدها تقف عند العتبة لتقول لي ملعون انت اذا لم تاكل ماسورة (العشلية) لحم يديك .

خطا مسرعا .. تلقفته عشرات الايدي .. عندنا في البيت سرداب لا يعثر عليه من يضرب (المندل) وطابوني بطابقين .. احدهما للخبز والاخر لاخفاء القمح خشية ان تلحقه الضريبة .. في الطريق استمع الى حوار طفلين صغيرين .. جاءوا يبحثون عن قاسم .. اقسم لو كان بين طيات ملابسي ما دللتهم ، قالت امي اننا نشبع اليوم من اكتافه . ابتسم .. دمعت عيناه فرحا وفخرا .. اشتعلت كريات دمه ففاض الزبد على شدقيه .. هم يفتشون الطوابين بحثا عني ، وفي عز الظهر لم تتعرض مستعمرة هيلمان ولا مرة واحدة لغزو ..

كالسوار كانوا يطوقون القرية « اخر زمن .. يلبس قاسم ثياب امراة كي يخرج من القرية .. اه يا زمن القهر .. لو حملت النساء في بلدي بدل الاطفال رصاصا لما تجرأ النهر على ان يصب في البحر دون اوامر مني » .

كلما همس النسيم لراسي كلمات عسلية .. اغفو على رجم الحجارة انتظر طلتها بفرح طفولي وعندما تهل اشعر ان كل الرجال في مستعمرة هيلمان غدوا اطفالا يستجدون قطع الحلوى من يدي .. يحلفون اغلظ الايمان لا يد لهم في قتل حسان المغربي ذاك الذي تدعيه لنفسها خضره .. اليوم لن يهفهف الريح فستانها الفضفاض .. تجلس الى طابونها تشم رائحة الخبز المحروق .. وعندما ياتي الانجليزي يركل الارض بقدمه كي يسالها عن قاسم .. فليفتشوا عني بين بيوتات مستعمرة (هيلمان) او في حظيرة اخرى على اطراف مستعمرة (ملبس) .

عند الظهر غيبته البيارات بعيدا .. القى بحمله وحفر الارض فانفرجت له فتحة تغطيها بلاطات جصية .. انتزعها وابتسم .. حمل على ظهره زاد يومه وانطلق في الفراغ ..

القيظ يضرب ظهور الخراف فيفتح في عينيها خطوطا تعكس نور الشمس .. تلمظ عند رؤية قطيع تائه .. لا .. جاء دور الراعي .

عن بعد كانت طلقات الرصاص تخرق مسمعيها فتزغرد جذله .. ها قد وصل .. اتحداك ايها الموت ان كنت تعرف الطريق الى بندقيته .. وخضره ، ذات الوجه الشمعي المتفضن .. تصرخ باعلى صوتها في فراغ الطابون تنبئه ان الطريق الى مستعمرة هيلمان هينة وسهلة .. عملت فيها خادمة عشرين سنة حتى كبر .. دلته على كل مسرب ومتاهه .. وعندما شب قالت له يا ابن التي تنام في حضن العوسج ولا يجرحها الشوك .. فلتاكل ماسورة (العشلية) لحم يديك . وعندما يجوبون الارض بحثا عنه سوف اغطيه في حضني فلا يعثرون عليه .. يعودون لاعداد حبل المشنقة .. وعندما يصلون سوف يكون جالسا الى جانب الطابون اغذي جسده المنهك بزوجين من الزغاليل الشهية .

ضحكت حسنة حتى الثمالة .. طلقاته كانت تميزها ، خيل اليها انها تسمع صوته يقصف على اطراف القرية .. ؟ « بيني وبين خضرة جبل من العسكر .. ساصل اليها لاعلمها ان الطلقات التي تسمعها هي قيء بندقيته .. رجل والله .. يقتحم وحيدا ثم يعود بالغنيمة » .

. . . .

فاءت كل ما فيها .. زار كانما وقع في شباك صياد ماكر .. كان اسمه يمهر الارض بخاتم الخوف الذي يعتصرهم .. ظنوه انسحب فخلوا له الطريق واسعا .. عند العودة كانت بعض سيارات الانكليز قد وصلت الى المشارف .. وانتشر الجنود في الحقول بحثا عنه ..

دار على عقبيه ، وعبر نبات (القريص) شق له طريقا نحو بئر الماء في بيارة والد حسنه .. لمحه من شقوق خصاص النذرة فاغتم وارتجف « ابن خضره .. ينوي ان يخرب بيتي .. يختبيء هنا ورائحة علاقته بها تملأ القرية .. فلتسمل عيناي اذا لم تفرمه سنابك الخيل » اتجه الى حيث الجند على بعد قليل من (هيلمان) بعد دقائق عاد وابتسامة الظفر على خديه ..

ـ يوم مرهق بلا شك .. كنت اسمع طلقاتك تخترق الريح الى حيث تنام على الاكتاف .

ـ لو لم تكن والدها لحدثتني نفسي ان اعتصر دماغك على راس هذه الحربة ..

صمتت كل نامات الريح على جوانب البيارة .. ارتمى الى الارض ووضع اذنه فوق حجر ناتيء « اسمع ضجة وصريرا » « انت واهم لا شيء هناك » .

اخترقت اولى الطلقات جدار بناء البئر الطيني ، انتفض كعصفور ذبح لتوه .. حاول ان يخرج فانتشر تراب السقف على رأسه .. سمع ضحكات خافتة فارتجف .

ـ هذا يومك يا ابن خضره .. كدت في يوم ان ارتدي لباس النساء حتى لا يشير الي الناس .

ـ خائن .. سيجوع الناس بلا شك .

ـ ذاك مناسب لشراء مزيد من قطع الارض .

حاول ان يصل اليه فارتجفت رصاصات عند الباب الذي نخر الصدا مفاصله .. استل سكينه وارتعد .. انسرب سريعا وارتمى فوق الحشائش .. وعبر الغيوم التي كانت تتكاثف في عينيه ، رآها تبتسم له باستحياء .

طرابلس ـ ليبيا